الفصل الرابع

- لم يفرق العرب والمسلمون - آنذاك - بين مسيحيى الغرب وبين مسيحيى الشرق، فالكل - بعيونهم - يحملون صليب المسيح ويخفون وراءه روح العداء للإسلام.
- بات من غير المعقول فى ظل الحروب الفكرية المعبأة بروح العنصرية والتكتلات الصليبية - ألا تلوث مشاعر المسلمين، وأن تظل الأفكار المثالية حول اليهود والمسيحية، ناصعة البياض.

obeikan.com

obeikan.com

مشاكل المسلمون والنصارى فى مصر

يمكن النظر إليها منذ الفتح الإسلامى إلى ما بعد عام ٢٠١١، وليس من العسير الإلمام بها، واحتوائها فى رعاية وحنو، يكفلان للجميع – مسلمين ونصارى – حق الاستمتاع بحق العيش، فى محبة وأمان.

لكن يوجد من يعكر صفوهما، وإذ تكاد الأجواء تصفو من تلبد الغيوم والسحب، حتى تغص سماواتنا وتكتظ ببالونات من المشاكل، تطلق عادة بأهواء من ينفخون فيها روح العداء فتنبعج بالقيح والإحن، وعقب ما تنفثأ، وتنفجر، مخلفة وراءها ما يبعث على عدم الارتياح والثقة، يعاد إنتاجها من جديد، بالنفخ فيها، لتأخذ دورة جديدة فى نشر سموم الاحتقان الطائفى والتوتر اللذين يشاع عادة، أن السبب فى ذيوعهما، هو سوء تصرف فصيل من المسلمين، ثم يعزى الأمر– فى النهاية – إلى الإسلام بشكل قاطع.

وباجترار مشاعر المعاناة، بدءاً من تلك العوائق التى توضع بغباء أمام طلبات الحصول على رخصة ترميم كنيسة تتهدد جدرانها الرثاثة والتلف، يقع ما لا يحمد عقباه، من مماطلة وتسويف من الجهات التنفيذية فى جهاز الشرطة.

فى الحقب الماضية – عندما كان يتم بناء كنيسة – يأتى نفر من السفهاء ليلاً ليحطموا عمدها وجدرانها. حدث ذلك بالفعل لأكثر من مرة، بيد أن السلطة الحاكمة كانت تعالج هذا الانحراف الاجتماعى إبان حكم العزيز بأمر الله ٣٦٦ – ٣٨٦ هـ (٩٧٦ – ٩٩٦م) بأن تقوم بنفسها ببناء الكنائس، ولم يمنع العزيز بناء ألكنائس فى عهده، بل وذهب إلى أبعد من ذلك: «فقد أمر فرقة من الجيش أن تحرس البناء طوال مدة هذا العمل وأن تقبض على كل من يحاول عرقلة تنفيذ

هذا الأمر ومعاقبته، ولما علم الشعب بنيات الخليفة، لم يعاود عدوانه، وهكذا تمت أعمال البناء».

ساعد ذلك النهج المواطنين، مسلمين ونصارى فى المحافظة على التآخى وأتاح للنصارى ممارسة الشعائر الدينية والحقوق السياسية، دونما تعصب.

على خلفية ما يجرى، كان وضع النصارى العلمى، والثقافى والخبرة فى شؤون الزراعة، وعالم المال والبنوك، أتاح لهم – منذ الفتح الإسلامى – الإضطلاع بإدارة البلاد المالية، والاحتفاظ بها –فى مختلف العهود – بفضل المهارة الشخصية فى الأعمال الحسابية، وغيرها من الحرف التى تحتاج إلى خبرة وحذق، بيد أن ذلك – لسوء الظن – جعلهم فى وضع يُحسدون عليه وبأنهم صاروا بلا منازع، أصحاب الأمر والنهى، وخلق لدى البعض شعوراً بلغ بهم إلى مشارف التوجس، والشعور بالدونية.

بينما كانت السلطات الحاكمة تهتم بدعم الهوية الوطنية لأبناء البلاد كافة، والرغبة فى أن ينصهر المسلمون والنصارى فى بوتقة المجتمع، حتى تنمحى المشاعر البغيضة، إعلاء لروح الوحدة والمحبة.

عندما نذهب إلى أخميم فى العصر الفاطمى، نجد النصارى إذا عملوا عيد الزيتونة المعروف بعيد الشعانين، يخرج فيه القساوسة والشمامسة بالمجامر، والبخور، والصلبان، والأناجيل، والشموع، ويقفون مدة عند باب القاضى، ثم يمرون على أبواب الأعيان من المسلمين فيبخروا ويقرأوا فصلاً من الإنجيل، ويطرحوا له طرحاً (يعنى يمدحوه) ولما تولى الأيوبيون الحكم أبطلوا هذه العادات.

ويومئ من يعيد قراءة التراث – فى خبث – إلى أن الأيوبيين قطعوا على النصارى صلة الاتصال، وما كان يبعث على بهجة النفوس فى عيد الشعانين، وإنما هم أرادوا أن يحفظوا على النصارى ماء وجوههم، بأن لا يقفوا بباب أحد،

مثل المتسولين، والمداحين، ومن ينتظرون إحساناً لقاء ما بذلوا من قراءة وأدعية.

وإذا ذكر هذا تطوع آخرون بذكر ردود الأفعال وأثرها السيئ فى نفوس النصارى، عندما أمر صلاح الدين الأيوبى – وهو كردى وليس مصرياً – فى اليوم الذى عينه الخليفة العاضد وزيراً، حيث أصدر أمراً يحرم على الذميين شغل وظائف الدولة:

« ولما كان صلاح الدين متديناً، فلم يحاول تحرير مبادئه، وكان يحذو حذو أخيه الأكبر نور الدين الذى كتب ذات يوم إلى الخليفة العباسى: « إن المسلمين حكموا خمسمائة عام ولم يسيئوا خلالها إلى النصارى فى الإمبراطورية الإسلامية، ومن لم يسلم منهم يقتل ». فأجاب الخليفة: « إنك لم تفهم تماما أقوال النبى ﷺ وإن الله لا يأمر أن تقتل من لم يرتكب السوء ».(١)

وفى عهد الخلفاء الفاطميين، كانت وظائف الدولة الرئيسية تسند إلى الذميين، وكانت أجهزة الحكم الرئيسية وطوائف الشعب، يشتركون فى إحياء أعياد النصارى، وكان أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم، يشارك الشعب المصرى فى مثل هذه الأعياد.

وكان شاطئ النيل يغص بالرهبان والقساوسة، وعلى امتداده توقد المشاعل والنار فى الليل، حتى ينزل الجميع إلى النهر ويغطسوا ومن مراسيم عيد الغطاس أن النصارى كانوا يخرجون من كنيسة القديس ميخائيل بقصر الشمع، فإذا وصلوا إلى ضفة نهر النيل، وعظهم أسقفهم باللغة العربية، ثم استنزل نعم الله على الخليفة، وأفراد البلاط، بعد ذلك يقفلون عائدين إلى كنيستهم بنفس الطريقة التى جاءوا بها حاملين الشموع والصلبان فيختمون صلواتهم هناك.

وفى أعقاب طرد الفاطميين من مصر، أعاد الأكراد العمل بالقوانين الخاصة

(١) ميخائيل السورى: ج ٣ ص ٢٤٣.

بزى الذميين، وكان ذلك فى حد ذاته مدعاة للألم وباعثاً على عدم الارتياح، خاصة أن بعض الكنائس لطخت بالوحل، وكسرت الصلبان، وذهب بعض المفكرين المسيحيين إلى الزعم بأن كثرة الذين اعتنقوا الإسلام فى ذلك العهد – من المسيحيين – كانت نتيجة لحدوث الاضطهادات.

وبإعادة مطالعة صفحات أخرى من تاريخ أمتنا نرى أن بلادنا العربية والإسلامية قد لحقها الضرر جراء الحملات الصليبية حتى انفجرت مشاعر الغضب والسخط ضد المسيحية والصليبيين، وكان من الطبيعى أن يصاب المسلمون بعدوى كراهية من يرفعون صليب المسيح أثناء الزحف بجيوشهم لاحتلال مصر:

« إن الحروب الصليبية كانت محاولة لمحو نفوذ الإسلام فى الشرق، فقد شنت هذه الحروب أول ما شنت لانتزاع حماية القبر المقدس من الخلفاء، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى قتال عام بين جيوش الإسلام وجيوش المسيحية، أى بين الشرق المسلم والغرب المسيحى ».(٢)

لم يفرق العرب والمسلمون –آنذاك – بين مسيحى الغرب ومسيحى الشرق، فالكل – بعيونهم – يحملون على صدورهم صليب المسيح وهم يخفون وراءه روح العداء للإسلام.

تكاد نفس المشاعر تتفاقم عندما يروج مفكرو الصهيونية لمقولة أن اليهودية أفضل الأمم « لأن الله هو الذى أسسها بنفسه، وذلك على ضوء البرنامج الذى وضع فى « بازل » والذى يتشكل من أربع نقاط هى:

-- تشجيع الاستعمار اليهودى فى فلسطين.

---

(٢) د. جاك تاجر (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى عام ١٩٢٢) تقديم سمير مرقس ود. محمد عفيفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠ ص ١٦٧.

– تأسيس منظمة تربط يهود العالم عن طريق مؤسسات محلية أو دولية طبقاً لقانون كل دولة.

– تقوية الشعور القومى اليهودى.

– الحصول على موافقة حكومية لتحليل الأهداف الصهيونية.

كان من غير المعقول – فى ظل الحروب الفكرية المعبأة بالعنصرية، والتكتلات الحربية الصليبية – ألا تلوث مشاعر المسلمين، ويصيبهم بشيء من القذى والكدر، وأن تظل الأفكار المثالية حول اليهودية واليهود والمسيحية، ناصعة البياض.

ونحن نقر أن هناك أحداثاً خارجية وداخلية – فى الماضى والحاضر – عمقت مشاعر سوء الظن، وقد لا نغالى إذ قلنا أنها تجاوزت – فى بعض المراحل – العقل الراشد، واكتست بغوغائية فاسدة، حتى أسفرت عن أعمال لا يقبلها الإسلام.

فمن فى الناس لا يذكر أن المسيحيين المصريين – لم يفوزوا وحدهم – بالمناصب الرفيعة فى أجهزة الدولة؛ بل حظى بمثل ذلك اليهود المصريين، وأن عدد النصارى فى مصر كان عام ١٩٠١ لا يزيد عن عشر سكان القطر، وكانوا يحتلون ٤٥,٢٢ فى المائة من الوظائف العامة ويقبضون ٤٠ ٪ من المرتبات، فى حين أن نصيب المسلمين لم يتجاوز ٤٤ فى المائة والأجانب ٦ فى المائة.

وبالعودة إلى الصليبيين وما فعلوه ضد الإسلام والمسلمن. نرى أنهم كانوا يتيهون بقوتهم، ويتعاملون مع الآخرين فى صلف وغلظة، كانت بيزنطة تعتزم التخلص منهم، وترى فى شعوب أوروبا الانحطاط والتخلف.

وفى أوائل القرن العاشر الميلادى، اجتاح البيزنطيون المدعمون بقوات الإمبراطورية اللاتينية الشرقية، صقلية، وشمال سوريا ولبنان، وهناك أوقف الفاطميون تقدمهم:

« واحتفظ البيزنطيون بأكبر جزء من الأراضى التى احتلوها مدة مائة وخمسة

عشر عاماً، وأخذوا يحلون بالتدريج العناصر المسيحية فى تلك الجهة محل العناصر الإسلامية، وحدث قبل ظهور الصليبيين بخمسة عشر سنة أن انتزعت القبائل التركية، تحت قيادة طغرك بك، هذه الممتلكات من البيزنطيين، فمن الطبيعى أن تخف الشعوب المسيحية فى أرمينيا وآسيا لدعوة الإمبراطور البيزنطى: الكسيس كومنين».(٣)

وكنوع من المفاضلة، بين مسلم ومسيحى، أظهر الصليبيون إبان حملاتهم على الشرق – تعاطفاً بالغاً نحو جميع النصارى على حد سواء (فلم يكن أمامهم إلا عدو واحد، وهو المسلم)، وفى هذا الصدد ثمة كلمة حق تقال، إذ لم يكن اليعاقبة المصريين يرتاحون لوجود الجيوش الكاثوليكية فى الشرق.

فى ذلك الوقت، كان سلطان الفاطميين، يضمحل، ويأخذ نجمهم فى الأفول، حتى جاء اليوم الذى استنجد فيه العاضد بنور الدين، فما كان من صلاح الدين الأيوبى – قائمقام نور الدين – إلا أن دخل بعساكره الأكراد مصر، ليطرد منها الفاطميين والصليبيين.

جاء فى تاريخ البطارقة. عقب طرد الفاطميين، سادت فترة من الفوضى وعدم الارتياح، فقد عمل الأكراد بالقوانين الخاصة بزى الذميين، وعاد بعض المفسدين إلى تلطيخ الكنائس بالوحل وتهشيم الصلبان.

ويذكر لصلاح الدين أنه حرر بيت المقدس من أيدى الصليبيين وأخضع جنودهم للأسر، وعليهم دفع الدية الحربية إذا أرادوا فك ذلك الأسر، فباع الفرنج – لأهل القدس – ما لا يمكنهم حمله من الأمتعة:

«وباعوا ذلك بأرخص الثمن فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه

(٣) د. جاك تاجر: مصدر سابق، ص ١٧٢ و ١٧٣.

(٤) الكامل فى التاريخ: القاهرة، المطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ جزء ١١ ص ٢٥١.

النصارى من أهل القدس، الذين ليسوا من الفرنج، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام فى مساكنهم، ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاستقروا، فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج».(٤)

كانت هناك بذوراً من الشكوك لدى الجانبين، مسلمين ونصارى، وإن كان أحد لا يعلن عنها، إنما هى كانت فى الخبيئة تنمو، وتتضاخم حتى صنعت ميراثاً، بات لكل منهما نصيباً فيه.

توهم المسلمون أن هناك تحالفاً مبرماً فى الخفاء بين النصارى المصريين وبين الفرنج، وأن انتماء هؤلاء لمصر لم يكن قوياً، على قدر ما كان الانتماء لأمثالهم من الفرنجة.

دعونا نطالع الخطاب الذى أرسله لويس التاسع إلى الملك الصالح فلعلنا نكتشف مدى الكراهية التى يكنها الصليبيون للإسلام والمسلمين:

«أما بعد، فإنه لم يخف عليك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنه لا يخفى علىَّ أنك أمين الأمة المحمدية، وغير خاف عليك أن عندنا أهل جزائر الأندلس وما يحملونه إلينا من الأموال والهدايا ونحن نسوقهم سوق البقر نقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات و الصبيان ونخلى منهم الديار، وأنا قد أبديت لك ما فيه الكفاية وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لى بكل الإيمان وأدخلت على القساوسة والرهبان وعملت قدامى الشمع طاعة للصلبان لكنت واصلاً إليك وقاتلك فى أعز البقاع لديك، فإما أن تكون البلاد لى فهى هدية حصلت فى يدىّ، وإما أن تكون البلاد لك والغلبة علىّ فيدك العليا ممتدة إلىّ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء».

(٤) الكامل فى التاريخ: القاهرة، المطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ جزء ١١ ص ٢٥١.

فماذا ينتظر من فارس عربى آمن بكتاب الله وسنة رسوله؟

ليس فى جواب الملك الصالح على رسالة لويس التاسع رضوخاً لتلك المشيئة الباغية، ولم تروعه الكتائب العسكرية القادمة من وراء البحار، متدرعة بلباس الدين.. رافعة فوق الرؤوس رايات الصلبان، يتقدم الجميع ملك يحدوه أمل الرغبة المجنونة فى احتواء مصر بين يديه كهدية خالصة له.

يقول الملك الصالح فى إجابته:

«أما بعد، فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا فرد إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه، ولو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظام حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وتخريبنا ديار الأواخر منكم والأوائل، لكان لك أن تعُض على أناملك بالندم، ولا بد أن تنزل بك العدم فى يوم أوله لنا وآخره عليك، فهناك تسىء الظنون وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، فإذا قرأت كتابى هذا فتكون فيه على أول سورة النحل ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وتكون على آخره سورة ص ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ ونعود إلى قول الله تعالى وهو أصدق القائلين ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، وقول الحكماء إن الباغى له مصرع وبغيك يصرعك وإلى البلاد يقلبك والسلام».

لا يظنن أحد أن تكون الصلة بين مسيحى ذاك الزمان وبين المسلمين، لا شائبة فيها ولا كدر، فمحاولة السيطرة – على الداخل – من خارج البلاد، ساهمت فى غرس بذور النفور والعداء، على أيدى الملوثين بأعمال الطغاة، ومن فى قلوبهم مرض، وهذا ليس من الإسلام فى شىء، ولا من المسيحية فى شىء، ولكنهما من أعمال النفس الخبيثة.

من الطبيعى أن ترتفع درجة التوتر وعدم الارتياح بسبب صلة النصارى المصريين بمسيحى حملة لويس التاسع، إذ شكلت قيادة الحملة الفرنسية فرقة

عسكرية من النصارى المصريين، وقد وضع نابليون بونابرت على رأس تلك الفرقة الأمير يعقوب المسيحى المصرى لتتولى أمر الدفاع عن جنود الحملة الفرنسية، والقضاء على جيش المماليك.

تأججت مشاعر المسلمين بالكراهية والاستنكار، وأسفرت هذه الروح عن أعمال القتل والتنكيل بالنصارى المقيمين فى مدينة دمياط خلال الحملة الفرنسية على مصر:

«وفى اليوم التالى وجد الصليبيون مدينة دمياط خاوية، أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا إليها وأعملوا سيوفهم فى رقاب المسلمين الذين لم يساعدهم كبر سنهم أو مرضهم من اللحاق بالجيش الإسلامى المتقهقر فإن هؤلاء النصارى خفوا إلى استقبال الصليبيين الذين اعتبروهم كأخوتهم وأشركوهم فى موكب انتصاراتهم».(٥)

ومن أسباب تدهور المشاعر على جانب المسلمين والنصارى واليهود المصريين، بات من غير المستغرب أن يلتزم الجميع بأمر الأمير بيبرس الجاشنكير والقاضى بعدم استخدام النصارى واليهود فى الأعمال المتصلة بالجهات السلطانية، ولا عند أحد من الأمراء، وأن يلتزم النصارى بلبس العمائم الزرق، وتشد من أوساطهم الزنانير ويلبس اليهود العمائم الصفر.

على هذا المنوال، مضى أبناء الوطن الواحد، يلطمون بعضهم بالإهانة والازدراء، وعلى الرغم من ذلك كله، فإن العناصر التى تجمع شتات الأمة المصرية، وهى موجودة فينا ولسنا فى حاجة لاستيرادها من الخارج.

إن من يطالع دستور ١٩٢٣ يجد فيه مواد مضيئة، نصت صراحة على مبدأ المساواة فى الحقوق المدنية والسياسية لكل أبناء الوطن، مسلمين ومسيحيين

(٥) الكامل فى التاريخ: مصدر سابق، ص ١٨٠ و١٨١.

ويهود، وشدد على حرية العقيدة، والرأى، والتعليم لمختلف أبناء الوطن الواحد.

ولم يعد أحد يتصور أن وجود أقلية مسيحية، تتمتع بقاعدة اقتصادية واجتماعية فى مصر تقوم بدور تحجيم الحركة العربية:

« هذا قول مردود عليه، وتكفى الإشارة هنا إلى الجولة التى قام بها« مكرم عبيد باشا » سكرتير عام حزب الأغلبية المصرى عام ١٩٣١، وزار فيها سوريا ولبنان وفلسطين، فقد عكست زيارته بعداً جديداً فى الموقف القبطى تجاه مسألة العروبة، وألقى عدة خطب فى دمشق وبيروت وشتورا والقدس وعكا وحيفا، وأثار عدم تعارض الفكر القومى العربى مع الشخصية المصرية.

بل لقد استخدم فى بعض خطبه تعبير « الجامعة العربية » قبل إنشاء تلك المنظمة الإقليمية بأكثر من عشر سنوات ».(٦)

وإذا كان هناك – حديثاً – من يتكلمون عن الشخصية المصرية فإن مصر هى جزء من كيان الأمة العربية، وفى ذلك يقول جمال الدين الأفغانى: « إن الأمة العربية هى (عرب) قبل دين ومذهب، وهذا الأمر من الوضوح والظهور للعيان بما لا يحتاج معه دليل أو برهان ».

وأكد ساطع الحصرى (أبو خلدون) بأنه لا يعترض على من يقول (مصر أولاً)، إذا كان يعتقد اعتقاداً جازماً بأن كل من يفكر فى مصالح مصر الحقيقية، يصل فى آخر الأمر إلى الحكم بأن مصر عربية.

وإذا كان هناك من يحاول التصدى لجيشان التيار الوطنى ، أو يضع العقبات فى وجه التناغم الاجتماعى بين أبناء الوطن الواحد، فهذه مشاكل يمكن معالجتها – كما يراها الإخوة المسيحيين – جد يسيرة، وإنها ليست بالمستحيلة، وأن ما يعانون بسببه، يكمن فى المادة الثانية من الدستور: « مصر دولة إسلامية »،

(٦) د. مصطفى الفقى «الأقباط فى السياسة المصرية»، القاهرة. دار الشروق الطبعة الثانية ١٩٨٨ ص ٨٥.

ويرون أنه لن يصعب على فقاء القانون الدستورى أن يجدوا مخرجاً لها، وإذا لم يكن ذلك فمن السهولة استحداث مادة جديدة، تحافظ للأقليات على حقوقهم.

ويرى مفكرون منهم إن مبادئ الشريعة الإسلامية هى نفسها مبادئ كل الشرائع السماوية والعقائد الإنسانية، وبحكم المحكمة الدستورية هى العدالة، والحرية، والمساواة، وأصحاب هذا الاتجاه يرون أن المسيحيين لا يعوزهم سوى أن تيسر لهم بناء الكنائس، وأن توجد مادة تضمن لهم الالتجاء لشرائعهم فى الأمور الشخصية.

●●●●●●

obeikan.com

obeikan.com